

بدائية الوصف في النص الشعري الجاهلي

نظرة جمالية في تجليات الحياة البرية الفطرية

الدكتور: بن الأبقع امحمد

كلية الآداب واللغات والفنون

جامعة زيان عاشور الجلفة

ملخص

تحاول هذه الورقة البحثية أن تتبع ظاهرة فنية في الشعر الجاهلي؛ وهي ظاهرة الوصف من زاوية محددة جداً، تركز على الخاصية البدائية في التصوير الفني الذي يندرج أمام الموصوف ويعبر بتلقائية وفطرة تتماس مع المشهد وتندمج معه ببساطة، غير متكلفة شبيهة بالحدس المباشر، وقد اعتمد البحث عن عينات شعرية وموضوعات من الطبيعة البكر، تجسد تجلي الحياة البرية في النص الشعري والطرائق والأساليب المشخصة لها.

Résumé

Cet article tente de suivre le phénomène artistique dans la poésie préislamique ; le phénomène de description décrit sous un angle très spécifique, la propriété primitive de la photographie artistique qui s'étonne devant le descripteur et exprime spontanément et instinctivement le contact avec la scène et se confond avec elle, tout simplement non sophistiqué similaire à l'intuition directe, la recherche était basée sur des échantillons poétiques et des thèmes de la nature vierge qui incarnent la manifestation de la faune dans le texte poétique et ses méthodes diagnostiquées.

1/ البدائية:

1.1/ المفهوم: يفهم من دلالات الفعل بدأ في المعاجم العربية قديمها وحديثها أول الحال في نشأة العالم وما فيه وانطلاقته في أصل الخلق والتكوين وتجليه على فطرته ابتداءً متصفاً بالنقاء والبركة⁽¹⁾، وقد تنصرف بعض دلالاته إلى معنى البديهة و" البديئة: البديهة... البديهة أول كل شيء وما يفجأ منه"⁽²⁾، وكأنها حال الشيء كما هو عليه في فطرته الأولى يروع النفس ويدهش الحس بتجليه على مثاله البريء المفطور، أما البدائية كمصطلح حديث فهي من أصول لغوية أجنبية إذ تدل كلمة بدائي primitif، على الأقدم في الزمن كما تدل على الشيء البسيط التلقائي الساذج الذي لم تلوثه تعقيدات الحضارة⁽³⁾، فالكلمة ذات بعد فلسفي في النظرة إلى الطبيعة وإلى العقلية الإنسانية في تصور لها وتعايشها معها وتجليات ردود أفعالها إزاءها وقد تدل على منظور لساني إلى العلاقة بين اللغة والحضارة، وكيف تصور اللغة بساطة الحضارة وأشكالها الأولى في بساطة منطلقاتها الطبيعية النقية غير المتشابكة في انفعال الذات الإنسانية بالشيء انفعالا لغوياً مباشراً ناتجاً عن التماس الحقيقي والمعيشة والمواجهة مع الذات والأشياء⁽⁴⁾، بحيث تتجلى طبيعة وصف الأشياء من منظور الدهشة الأولى كما هي على الفطرة لا تخضع للتنقيح والصنعة بل تندفع من النفس كصيحة الفزع تعبر عن نفسها لحظة ميلادها، تنبثق وتتفجر خارجة في لحظة تزامن بين التأثر ومثول الشيء في مكانه وزمانه الطبيعيين وعلى هذا الأساس يقول ماكسيميليان نوافك: " يمكن تعريف الذاتية بأنها إسباغ المثالية على

طريقة في الحياة تختلف عن طريقتنا في أنها أقل تعقيدا وأقل تهذيبا ووعيا بالذات، وقد توجد البدائية في حالة مجردة من حالات الطبيعة أو في الريف حيث يخف أثر المدينة⁽⁵⁾، إنها ليست حالة عقلية بحتة بل هي حالة أسلوب وطريقة في رؤية الأشياء والانفعال بها والتعبير عنها ويخطئ أولئك الذين يزعمونها مقياسا ثابتا لعقليات الشعوب

1.2/ الشعر العربي والبدائية: يتفق النقاد على حقيقة هامة وهي أن الأدب العربي بصفة عامة والشعر منه بصفة خاصة يتميز بمرحلة من النضج متقدمة فهو " يطل علينا لأول وهلة من قلب الصحراء تام الحلقة كما خرجت (منيرفا) مستوية في ذهن (جوبيتر)⁽⁶⁾، وعليه فإن صفة البدائية في حقه لا تتجاوز الدلالة على التصوير الفطري التلقائي لمعطيات الشيء كما هو ولمجرى شعور الشاعر به لحظة التماس بينه وبين الموصوف ولا نخرج للتقليل من بنية العقلية العربية، وفي هذا الشأن يتموقع الموقف الذي عبر عنه مصطفى ناصف " لا نقول أن الأدب الجاهلي يمثل طفولة الأدب العربي تماما، فكثير من الناس يرى أن الطفولة ضئيلة التجارب قليلة الخبرة لا عهد لها بالتأمل في الحياة...ولا تكاد تتجاوز الأشياء القريبة الساذجة ولكن الأدب الجاهلي ليس طفلا بهذا المعنى الأدب الجاهلي ثمرة من الثمار الناضجة"⁽⁷⁾، إن طريقة الوصف المندesh المنفعل هي صفة حياة وميزة طراوة ومعيار عاطفة نقية طبيعية تنسم بها الشعوب التي عاشت مع الطبيعة ومارست الانفعال بموجوداتها انفعالا حيا ناتجا عن تواصل مباشر بدون واسطة سوى واسطة اللغة والنص، ومن هذا المنطلق يتوجب أن نعرف الخصائص التي ميزت الشعر الجاهلي وضبطت اتصافه بالنزعة البدائية المتقلبة من إसार الصنعة والتكلف، الجانحة إلى التلقائية والبداهة.

1.3/ موجّهات البدائية:

1.3.1/ الانبثاق الشفوي: يدل الانبثاق الشفوي على انطلاق التعبير اللغوي في لحظة التماس الأول بين الذات والموضوع المؤثر عليها في شروطه الطبيعية وصيرورة حدوثه بحيث يغدو الكلام ذا أولية على اللغة يجسد ذات الفرد الخاصة في ممارسة اللغة معبرا عن لحظة وعي متميزة، ولحظة شعور لا تتكرر ولا يعاد إنتاجها بدقة⁽⁸⁾، فالشاعر فرد متميز وتعبيره باللغة هو كلام خاص ينجز فيه قدرته الفردية ويتماهي في لحظة الإبداع الفريدة بمجرى الشعور وتيار الوعي كليهما وينتج نصا فيه بصمة لحظته الآنية، وحركة الشيء المنظور كما هو في واقعه وكما هو في تلبس الذات الشاعرة به، في تلك اللحظة بالذات التي ليس لها قبل، وليس لها بعد، فريدة مبدعة في بابها.

إن التقاليد الشفوية من أهم ميراث الشعر العربي القديم في مرحلة الحياة الفطرية، فهو يقال من الشاعر، يسمعه الناس على طبيعته، ويتناقلونه بالرواية متواترا، ويظل يعمل في حركته الإنسانية، وتعمل فيه الذاكرة عملها مع المحافظة على هيكله وسماته العامة والتجربة الشعورية التي يستحضرها النص في وجدان متلقيه الأول وهو منتج، وينفذها في وجدانات متعددة بتعداد التلقي وأزمنته وإمكانات الإضافة الجمالية في ذلك التلقي المتنوع، فاعتماد النص على المشافهة هو الذي يجعله حيا مؤثرا، فهو غداء طبيعي طازج، وهذا ما ذهب إليه تودوروف بقوله: " الشعر يستهلك حارا"⁽⁹⁾؛ الشاعر يلقي من فمه القصيدة فيستقبلها راويه كما هي وليدا جديدا كما تستقبل الحالبة الحليب من الضرع لحظة تماس يديها مع أخلاف الناقة أو ضرع الشاة فهو جديد حار دسم، فيه حرارة الضرع، ونبضات الذات التي خرج منها لتوه، فالنزعة الشفوية تضيف على النص هذه الحياة الطازجة بل " النماجات الشفوية تشكل جزءا حميما من هذه الحياة... ولما كانت هي الحياة نفسها فإنها تنطوي على الأصالة وتبقى حية ما بقيت الحياة"⁽¹⁰⁾،

وهذا ما جعل الشعر العربي الجاهلي متميزا بين الآداب، إنه شعر الفطرة وصوت النص الحي المتداول.

1. 3. 2/ البداوة: في اللسان " البداوة: خلاف الحضر، والبادية اسم الأرض التي لا حضر فيها، وإذا خرج الناس من الحضر إلى المراعي في الصحاري قيل قد بدوا... وتبدي الرجل أقام بالبادية"⁽¹¹⁾، والبداوة حياة في صميم الطبيعة البكر يعيش فيها الشاعر مغامسا لموجودات الكون الطبيعي، فينفل ويتأثر وتنطلق من قلبه الدهشة ومن لسانه التعبير مما يجعل الشعر في المقام الأول صوتا من أصوات البداوة وصرخة من صرخاتها في مواجهة الحياة إن " سبيل الشعر هو وصف الحياة البدوية بطبيعتها وحيوانها...، فهي منزل وحي الشاعر تنطلق فيها نفسه وتجد بها قريحته... الشعر لا يبلغ درجة الكمال والتمام إلا إذا كان الشاعر سليل البادية مهبط الشعر، وإن صدور الشعر من ابن الوبر له وقع في النفس يخالف صدوره بذاته من شاعر حضري."⁽¹²⁾، ولعل السر يكمن في أن أهل البادية يكتسبون من صلتهم المباشرة بالطبيعة البكر النقية؛ صفاء الذهن وحدة الحواس وطمأنينة النفس وخلو البال من الشواغل الصارفة عن الإحساس الفطري الجياش الدفاق، فالبادية تتصف بالاتساع والانبساط، وامتداد مجال الرؤية وانفتاح النفس وهدوء البال، وتلقائية الشعور، ولذلك كانت مبعثا للنبوة ومهبطا للوحي، ومتعلما للفصاحة ومدرسة للارتجال وسرعة البديهة.

1. 3. 3/ الفطرة: من معاني الفطرة الطراوة والقرب وحداثة حصول الشيء، وبراعة الطبع وتهيوه لقبول المعارف وما يلقنه منها⁽¹³⁾، وهذا المعنى يقترب كثيرا من معنى البدائية كما حددناه سابقا، وهو ما يبرز بدقة التسمية الشائعة التي يطلقها الكثير من الدارسين على الأدب الجاهلي على أنه أدب الفطرة؛ أي أدب الطبع الصافي المتحرر وكان العرب يفرقون بين الشاعر المطبوع والشاعر المصنوع، ويكثر في نقدهم الحديث عن الطبع والصنعة، ورأوا أن أجود الشعر ما كان عن طبع أول إنتاجه وصياغته، ثم لم يشددوا النكير على الشاعر إذا استعان بشيء من التهذيب والتنقيح الذي يصقل العمل دون أن يذهب بملامح الطبع التلقائي فيه، وبذلك عاب الأصمعي بعض الشعراء رغم علوهم في الشعر فقال: " لولا أن الشعر...، استعبدهم... وأدخلهم في باب التكلف و... الصنعة ومن يلتمس قهر الكلام واغتصاب الألفاظ، لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعاني سهوا ورهوا، وتنتال عليهم الألفاظ انثيالاً"⁽¹⁴⁾، فامتدح الطبع لأنه تعبير فطري تلقائي سلس، يتدفق ويجري عفو الخاطر، ويطبع الأسلوب بطابعه، فتجيء القصيدة كموجودات الله في الطبيعة أسلوبا فريدا، إن الطبيعة كما يرى (بوفون) تقدم أعمالا كاملة خالدة وعلى الشاعر أن يحاكيها في جمالها الكامل المتناسق إذا أراد إبداع آثارا خالدة⁽¹⁵⁾، وكلما اقترب الشاعر من الحياة البرية الفطرية أمكنه استيعاب تلك النماذج العليا الخالدة. وإطلاق النفس على سجيتها هو استجابة لفطرتها وجبلتها المركزة فيها بأساس التكوين، وإطلاق اللغة الشفافة المنبثقة من مرآة القلب، وكان القاضي الجرجاني يدافع في نقده عن الطبع المذهب الذي صقلته الرواية وشحذته الفطنة وخبرة الذوق، ويقف من شعر الشاعر عند" ما قاله عن عفو خاطره وأول فكرته"⁽¹⁶⁾، إذ صدوره عن فطرة إلهية وطبع مجبول، يكون فيه أسلوب الشاعر حيا متحركا، يستمد الشاعر فيه وهجه وانتقاده من " قدرته على الرصف والسبك، وربط الألفاظ بما يحيط بتيار الفكر والشعور أثناء لحظة الانبثاق والخلق الفني"⁽¹⁷⁾، وهو يواجه الطبيعة ويستلهم منها في تلك اللحظة بالذات، والمتأمل للشعر الجاهلي يجد الشاعر ابن الطبيعة، وصوتها الحي الحاضر الذي وصف ما هو كائن، ووصف شعوره به كما هو كائن، وكما يتأثر به في حينه.

2. فن الوصف في الشعر الجاهلي:

2. 1/ الوصف والشعرية: يشبع الشعر الجاهلي الحاسة الإنسانية بمادة خصبة لأن الشعراء ارتبطوا بمحيطهم الطبيعي ارتباطاً وثيقاً وأخضعوه للملاحظة وشكلوا من قصائدهم لوحات فنية متعددة الألوان والأشكال، بل تجاوزوا ذلك إلى تتبع الهياكل والأوضاع والأصوات والروائح، مع بعض الخطرات النفسية التي يتغلغل فيها الشاعر إلى وصف مشاعره تجاه الطبيعة حية وجامدة، كما فعل امرؤ القيس في وصف الليل، وكما وصف سائر الشعراء إحساسهم بالفقد من خلال وصف النوق الفاقدة لأبنائها، ولقيمة الوصف في الشعر اعتبر خاصية مميزة من خصائص عمود الشعر كما تعارف عليه رواة الشعر ومثقفوه، وكما صاغه المرزوقي في نظريته المشهورة فيما بعد فكانت العرب "تسلم السبق... لمن وصف فأصاب وشبه فقارب" (18)، وبراعة التشبيه من براعة القدرة الواصفة، حتى إن المفاضلة بين الشعراء تقع على حظوظهم في ذلك، وإن فيهم من عرفوا بوصف مظاهر من الطبيعة خاصة حتى أصبحوا فيها مراجع لغيرهم؛ يقول ابن الأعرابي "لم يصف أحد قط الخيل إلا احتاج إلى أبي دؤاد، ولا وصف الحمر إلا احتاج إلى أوس بن حجر، ولا وصف أحد نعامة إلا احتاج إلى علقمة بن عبدة" (19)، فهؤلاء الشعراء قامت شعريتهم على ملكة الوصف في معطيات طبيعية بعينها، على أن النقد قد يجعل الشاعرية أوسع مجالاً من مجرد الارتباط بمظاهر معينة، فيحيل على الوصف مطلقاً؛ فشعرية امرئ القيس مثلاً في نظر الأمدي تقوم على أشياء كثيرة أهمها "بديع الوصف ولطيف التشبيه" (20)، مما فاق به الشعراء حتى وصفه عمر بن الخطاب بالبصر في الوصف قائلاً: خسف لهم عين الشعر، فافتقر عن معان عور أصح بصراً" (21)، وكانت هذه النزعة الوصفية غالبية على شعره مسيطرة على أغلب شعراء العصر الجاهلي فهو بحق شعر الوصف.

2.2/ وصف الطبيعة الحية في الشعر الجاهلي:

2. 2. 1/ الحياة البرية: يحيل هذا الوصف على الطبيعة الحية باعتبارها حياة متحركة مضافة إلى حركة النص الشعري وحياته من جهة، ويضيف إليها النص الشعري رؤية خاصة من جهة أخرى، فتغدو عالماً شعرياً يعيد بناءها في علم شعري يتميز ببداية الوصف وجمال الدهشة الوجدانية يشبه الوصف الشعري البكر في الصفة الهوميرية المتعارف عليها في النقد، فكثيراً ما استعرض الشعراء تجاربهم في أهوال الصحراء وصوروا مجاهلها وما تبدى لهم من السراب وتلون الغيلان والسعالي، وما اتصفت به الأودية الموحشة والقفار الخالية، والفلوات المخوفة، بما يؤسس في المخيال النقدي صورة الشاعر البدوي الذي "يركب أعجاز الإبل وينعت الفلوات...، يقول وحشياً من الشعر لا يقدر على مثله" (22)، وهذا الشعر المتلبس بوصف القفار والبراري له نكهة خاصة تشبه نكهة الطبيعة المهجورة التي انطوت مناظرها على سحر البكارة التي لم تتلوث بالإرادة الإنسانية المصنوعة، يحس القارئ بشيء من الخوف في أجواء التوحش ومسالك القفار، خوف لذيذ مغر، فإذا الأودية التي تسكنها الحيات، ويسمع فيها عزيف الجن، تغلفها لذة الوصف الأسطوري من واد عبقر وأجوائه:

عليها فوارس مخبورة كجن مساكنها عبقر (23)

وأحياناً تتراءى للشاعر وهو وحده في القفر الغيلان فيحاورها، كما فعل تأبط شراً:

فأصبحت والغول لي جارة فيا جارتا أنت ما أهولاً (24)

فقلت لها: يا انظري كي تري فقلت فكنت لها أغولاً (25)

وقد يدخل معها في قتال بالسيف فيقتلها ويصف بشاعتها وتوحش المكان الذي لقيها فيه:

بأنني قد لقيت الغول تهوي بسهب كالصحيفة صحصان
إذا عينان في رأس قبيح ك رأس الهر مشقوق اللسان
وساقا مخدج وشواة كلب وثوب من عباء أو شنان(26)

وقد يقصد ناره الجن فيسأل ويرحب في لحظة تعارف ودية:

أتوا ناري فقلت: منون أنتم؟ فقالوا: الجن، قلت: عموا ظلاما(27)

وكل ذلك أسس للعصور اللاحقة تقاليد أدبية يظهر من خلالها وعيهم بأثر الحياة البرية وأجوائها في إثارة الإلهام الشعري، ويحرك شهوة القول والرغبة في الوصف، فإذا تعسر على الشاعر القول وكبا زناده، تشبع بتلك المظاهر الساحرة في البراري فانطلق لسانه، يقول أحد الشعراء واصفاً ذلك: "أمر براحتي...، ثم أسير في الشعاب الخالية، وأقف في الرباع المقوية، فيطربني ذلك ويفتح لي الشعر"(28)

2. 2. 2/ رؤية الشعراء للحياة البرية: يحاول هذا الملح البحث عن نظرة الشعراء للطبيعة ومحتوى خطابهم الذي يصفها ويمجد الهروب إليها من قسوة الحياة، فتغدو أحضانها ملاذهم؛ فعلى حد قول ماكسيميليان نوافك فإن المفكرين كادوا "أن يتفقوا على أن أقرب الشعر إلى الطبيعة ما يقوله من يعيشون في حضنها"(29)، فهم يتماسون معها ويستلهمون وحيهم الحي منها بدون واسطة، فينعكس ذلك على لغتهم فتتجلى نقية عفوية بدون تكلف أو صنعة، فيها نظرة بدائية فطرية تستمد صورها التلقائية من الاستعراضات العادية للطبيعة، تلك اللغة التي مجدها فلاسفة الطبيعة ورأوا أنها "كانت موجودة قبل الفساد الذي أحدثته مؤسسات المجتمع، ومن ثم كانت أقرب للمشاعر والرغبات الإنسانية الفطرية... تلك اللغة كانت أقرب إلى المنبع الأنقي"(30)، خلا شعراؤها بمصدر الحياة الأول وهو الطبيعة، واستمدوا منه السكينة والنقاء الهادئ، وتعايشوا مع الوحوش؛ هكذا كان حوار امرئ القيس مع الذئب عاكسا نوعا من الألفة بينهما، ألفة أوجدتها قرابة التوحش وأصرة التشرد، والمشاركة الوجدانية:

وواد كجوف العير قفر قطعته به الذئب يعوي كالخليع المعيل

فقلت له لما عوى: إن شأننا قليل الغنى إن كنت لما تمول

كلانا إذا ما نال شيئا أفاته ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل(31)

أما الشنفرى فنقم على عائلته الإنسانية، واتخذ من الوحوش في الطبيعة البكر عائلة وقرابة، استحقت حبه وثقته:

ولي دونكم أهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جبال

هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جر يخذل(32)

إنه يحس بالقرابة مع الطبيعة وكائناتها ويستمد من لوحاتها الموحية "فلغته هي نتيجة حوارهِ مع العالم بموجوداته العاقلة وغير العاقلة، وحواره مع ذاته من خلال حوارهِ مع العالم، وهي بما هي لغته الخاصة ذات صلة نسب ببيئته وعصره"(33)، تلهمه وحداتها الحية المتحركة طبيعة كل ما فيها ناطق بالجمال في صورتها الأولى التي لم تخرج عن إلهامها الفطري، وبراءتها الإلهية وجبلتها الأصلية، تلك الطبيعة التي تجد صداها في أصوات شعرية جاهلية كثيرة، اتخذتها ملاذا ووقفت مرتجلة الوصف المندهب أمام مظاهرها الحية المائعة.

2. 2. 3/ مظاهر الحياة البرية في النص:

2. 2. 3. 1/ الثور الوحشي والكلاب: استحوذ مشهد الثور الوحشي في صراعه مع الكلاب على مساحة هامة في خارطة الشعر الجاهلي، وبدا النص الشعري ملتفتا إلى نوع من التصوير الفني المقصود لذاته، المستحضر لحاسة فنية راقية تعتمد الملاحظة وتستوفي تتبع عناصر

الجمال، في نزعة فنية تشبه إلى حد كبير مذهب البرناسية الحديثة، بدا فيها الشعراء متفوقين في إسباغ مظاهر الجمال على موصوفاتهم؛ فانطلاقاً من مقولة كاتب: "الفن ليس تمثيلاً لشيء جميل، إنما هو تمثيل جميل لشيء من الأشياء"⁽³⁴⁾، فإن الشعر الجاهلي استطاع الإحياء بخبرة جمالية عالية؛ ويمكن الإشارة إلى عينات حصرية منها تصوير النابغة لصراع الثور البري مع الكلاب، بحيث تجلت حاسته في تصوير مظاهر جمالية دقيقة جداً، حيث يقول:
من وحش وجرة موشي أكارعه طوي المصير كسيف الصيقل الغرد
كأنه خارجاً من جنب صفحته سفود شرب نسوه عند مفتأد⁽³⁵⁾
وقد يخرج إلى الحديث النفسي، ويتمثل شخصية الحيوان فيعبر عن شعوره وإحساسه تجاه صاحبه:

قالت له النفس إني لا أرى طمعاً وإن مولاك لم يسلم ولم يصد⁽³⁶⁾
ويتكرر هذا المشهد وطاقته السردية مع اختلاف قدرات الشعراء الفنية وتقاربها في بعض المظاهر بحكم البيئة الطبيعية التي هي معطى إنساني وإن اختلفت بعض ملامحه إلا أنه يخاطب المشاعر المشتركة بين البشر⁽³⁷⁾، على أن موضوع الثور والكلاب كما يرى الكثير من النقاد كان له "حضور كبير في الشعر الجاهلي كاد يتفوق على شعر الناقة والخيل في لوحاته القتالية مع الكلاب التي أبدع الشعراء الجاهليون في وصفها، وقد تكررت لوحات الثور في كثير من القصائد الجاهلية وأخذت نسقاً متشابهاً عند معظم الشعراء"⁽³⁸⁾
2. 2. 3. 2 / الأسد: في بيئة تعند بالشجاعة اعتبر الأسد رمزا للقوة والمقاومة، ومثالا نادرا للشجاعة، وقد بلغ الشعراء من القدرة على وصفه مبلغا يثير الخوف في المتلقي، ومن أشهر اللوحات الواصفة لهذا المشهد الطبيعي البدائي البكر قصيدة أبي زبيد الطائي؛ وهو شاعر مخضرم أكثر شعره في الأسد:

له زبر كاللبد طارت رعا بلا وكتفان كالشرخين عبل مصبر
رحيب مشق الشدق أغصف ضيغم له لحظات مشرفات ومحجر
وعينان كالوقبين في قلب صخرة يرى فيهما كالجمرتين التبصر
من الأسد عادي يكاد لصوته رؤوس الجبال العاديات تقعر⁽³⁹⁾
ولم يكتف بقدرته الشعرية بل تعداها إلى براعة الوصف النثري، حتى إن عثمان بن عفان عندما سمع شعره ونثره ارتاع منه فقال: "اسكت قطع الله لسانك فقد أرعبت قلوب المسلمين"⁽⁴⁰⁾.

2. 2. 3. 3 / العقاب وانقضاضها: وهذا موضوع بري شيق يرتبط بحاسة الصيد عند البدو، لأن فيه استعراضات تجمع في الانقضاض بين السماء والأرض؛ فالعقاب تارة تطارد القطا والحبارى والحجل وأشباهاها من الطيور، وتارة تنقض على صيد البر من أرانب برية وثعالب ويرابيع وصغار الماعز الجبلي، وحتى الذئب، ولم يفت النص الشعري أن سجل دقة حواس الشعراء في التقاط صور نادرة، عامرة بالحياة والحركة والصوت والهيئة، وقد توفرت عينات كثيرة من وصف العقاب أبدع فيها الشعراء الجاهليون إبداعاً فذاً، وفي شعر عبيد بن الأبرص على الخصوص نموذج تصويري كامل يدلل بدقة على ما يذهب إليه في هذا المجال يقول:

كأنها لقوة طلب تخزن في وكرها القلوب
فأبصرت ثعلبا من ساعة ودونه سبب جديب⁽⁴¹⁾
يدب من حسها ديبيا والعين حملاقتها مقلوب
فجدلته فطرحته فكدحت وجهه الجبوب

يضغو ومخلبها في دفه لابد حيزومه منقوب⁽⁴²⁾
وفي ديوان امرئ القيس نماذج كثيرة تصف العقاب وانقضاضها بما يوحي بأجواء البراري
وتجليات الفقار الموحشة الخالية يقول:

تخطف خزان الشربة بالضحي وقد حجرت منها ثعالب أورال
كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي⁽⁴³⁾
واعتبر البيت الأخير من إبداعاته البلاغية التي رددتها القرون وأشاد بها البلاغيون وتمثل بها
الدارسون، وقلده فيها الشعراء على مر العصور.
وفي نموذج آخر يصف انقضاضها على الذئب:

فأبصرت شخصه من فوق مرقبة ودون موقعها منه شناخيب
فأقبلت نحوه في الريح كاسرة يحثها من هواء الجو تصويب
فأدركته فنالته مخالبها فانسل من تحتها والدف مثقوب⁽⁴⁴⁾

ولا يخفى ما في كل هذه النماذج الشعرية من الأفعال والنعوت والمشتقات والتراكيب الواصفة
الدالة على حركة المشهد، وسرعة الانقضاض والتفاعل في الأحداث.

إن هذه النماذج تعطي نظرة عامة عن مساهمة الشعر العربي القديم في تصوير الحياة البرية،
والاقتراب من الطبيعة البكر بأسلوب تلقائي، فيه بكاره الصورة ونقاء اللغة وبدائية النظرة التي
لم يفسدها تعقيد الحضارة، إنه يعكس الحاسة الجمالية لأمة عريقة، امتد نصها الشعري في
عصور بعيدة في القدامة، وتجلت روحها الفنية في شكل شعر فطري خالد، ولا شك "أن شعر
الإنسان البعيد كل البعد في الزمان والمكان عن تعقيدات الحضارة، وذلك لكونه متدفقا من
مخيلة لامعة وقلب مفعم بالعاطفة، هو شعر طبيعي وأصيل، فالعبقرية الشعرية في العصور
البكر في الدنيا لا تعترف بقانون، اللهم إلا باعثها التلقائي الخاص بها، الذي تتبعه دونما
شرط"⁽⁴⁵⁾، كانت ساذجة ولا يعني أنها لم تبدع حضارة بل كانت ذات عقلة مميزة، وإبداع
حضاري فذ، لكنه تعلق بحضارة القيم، حضارة الكلمة التي تبدع الجمال وتستجلي الرؤيا، ولم
تغرق في مظاهر الحضارة المادية ولا في تعقيدات التجريد الفلسفي والتبرير الأسطوري شأن
الشعوب الأخرى.

هوامش الدراسة

- (1). ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط07، مج: 02، ص: 32.
- (2). الفيروز أبادي، القاموس المحيط، دار الغد الجديد للطباعة، القاهرة، ط01، 2014، ص: 110، 112.
- (3). عبده الحلو، معجم المصطلحات الفلسفية، مكتبة لبنان، د ط، 1993، ص: 136.
- (4). المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مطبعة الدار البيضاء، المغرب، د ط، 2002، ص: 118.
- (5). موسوعة كاميردج في النقد الأدبي القرن الثامن عشر، ه. نسبة، ك، راوسون، تر: جمال الجزيري، محمد الجندي، شكري مجاهد، إشراف: جابر عصفور، المركز القومي للترجمة، ط01، 2009، ص: 59.
- (6). زكريا صيام، الشعر الجاهلي، ديوان المطبوعات الجاهلية، د ط، 1984، ص: 21.
- (7). مصطفى ناصف، قراءة ثانية لشعرنا القديم، دار الأندلس، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ص: 42.
- (8). حسن البنا عز الدين، الكلمات والأشياء، دار المناهل، بيروت، لبنان، ط01، 1989، ص: 13.
- (9). تزفيتان تودوروف، نظريات في الرمز، تر: محمد الزكراوي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط01، 2012، ص: 480.

- (10). مولود معمرى، هل للشفوية خصائص مميزة؟، مجلة المسألة، إتحاد الكتاب الجزائريين، العدد: 03، 02، خريف وشتاء 1992، ص: 121.
- (11). لسان العرب، مج: 02، ص: 42.
- (12). زكريا صيام، الشعر الجاهلي، ص: 49.
- (13). لسان العرب، مج: 11، ص: 198.
- (14). الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت، د ط، د ت، مج: 02، ص: 13.
15. Braunschvig (marcel), notre littérature_ étudiée dans les textes Armand colin, paris, 1947, 2eme volume page :67.
- (16). القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح: محمد أبي الفضل إبراهيم علي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د ط، د ت، ص: 25.
17. notre littérature_ étudiée dans les textes page :67. (18). القاضي الجرجاني، الوساطة، ص: 33.
- (19). نجوى حيلوت، النقد الأدبي ومصطلحه عند ابن الأعرابي، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط 01، 2007، ص: 443.
- (20). أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، ط 05، 2006، الجزء: 01، ص: 420.
- (21). أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تح: إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عباس، ط 02، 2004، مج: 08، ص: 142.
- (22). نفسه، مج: 19، ص: 77.
- (23). نفسه، مج: 18، ص: 68.
- (24). ديوان تأبط شرا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط 03، 2012، ص: 48.
- (25). نفسه، ص: 49.
- (26). نفسه، ص: 75.
- (27). نفسه، ص: 67.
- (28). الأغاني، مج: 01، ص: 337.
- (29). موسوعة كامبردج في النقد الأدبي القرن الثامن عشر، ص: 65.
- (30). نفسه، ص: 71.
- (31). الخطيب التبريزي، شرح المعلقات العشر المذهبات، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط 01، 2012، ص: 57، 58.
- (32). فؤاد إفرام البستاني، الشعر الجاهلي، الشنفرى، دار المشرق، لبنان، ط 09، د ت، ص: 65، 66.
- (33). تيسير شيخ الأرض، الشعر والجمال والواقع، مجلة الوحدة، العدد: 82/ 83، يوليو/ أغسطس، 1991، ص: 141، 142.
- (34). جميل علوش، النظرية الجمالية في الشعر بين العرب والإفرنج، مجلة الوحدة، العدد: 24، سبتمبر 1986، ص: 59.
- (35). ديوان النابغة، صنعة ابن السكيت، تح: شكري فيصل، دار الفكر، بيروت لبنان، ط 02، 1990، ص: 07، ص: 11.
- (36). نفسه، ص: 12.
- (37). موسوعة كامبردج في النقد الأدبي القرن الثامن عشر، ص: 66.
- (38). حميد رضا زهره إي، الطبيعة في الشعر الجاهلي، diwan alarab.com
- (39). ديوان أبي زبيد الطائي، تح: نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف، بغداد، د ط، 1967، ص: 59، 60.
- (40). الأغاني، مج: 12، ص: 89.
- (41). ديوان عبيد بن الأبرص، دار بيروت للطباعة، د ط، 1979، ص: 29، 30.
- (42). ديوان امرئ القيس، تح: ابن أبي شنب، ش و ن ت الجزائر، د ط، 1974، ص: 121، 122.
- (43). نفسه، ص: 417، 418، 420.
- (44). موسوعة كامبردج في النقد الأدبي القرن الثامن عشر، ص: 267.